عود على بدء

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

— ٤ —

كان يرى الأستاذ فليكس فارس رجحاناً لطابع الشرق الغيبي على قالب ثقافة الغرب الاثباتية . ومرد هذا الرجحان كما ظهر لنا من مناقشة كلامه اعتقاده بقانون الرجعى ، وبأن لهذا الشرق من كيانه نافذة يتطلع منها إلى الحياة ، هى نافذة فطرته الموروثة ، فمنها يستقبل النور ، ومنها يستقبل النسمات لأنفاسه .. وفطرة الشرق الموروثة على زعمه قائمة على الايمان بالغيب . ونحن نرى ما يعبر عنه بالفطرة الموروثة هو التراث الشعبي لهذا الشرق والثقافة التقليدية له . وهو شيء كما قلنا غير فطرة الشرق وروحه، لأن الفطرة شيء مجرد يظهر فى تاريخ الشعب وفى ثقافاته المتعاقبة من حيث يحتضن ثقافة الشعب التقليدية . إذاً من الخطأ من الناحية العلمية ما يقوله مناظرنا الفاضل الأستاذ فليكس فارس من أن فطرة شعوب الشرق هى الحالة الغيبية . والصحيح أن يقول إن طابع ثقافة الشرق التقليدية هو غيبي

ولا شك أن طابع هذه الثقافة التقليدية ممكن تغييره بالطابع اليقيني ، ولكن هذا التغيير وقف على العوامل والظروف التى تجد طريقها إلى محيط هذا الشرق . فنحن نعلم بأن كينونة الانسان وقف كما قلنا فى المقال السابق على مجموع الصلات المتبادلة بين المؤثرات المختلفة التى يختص بها المحيط الاجتماعى والبيئة الطبيعية من جهة ، والانسان من جهة أخرى ؛ فاذا ما تغايرت المؤثرات فى المحيط الاجتماعى فتبعاً لها يتغاير منتوج الصلات القائمة بينها وبين البيئة الطبيعية حتى تحوز من المكافأة ما يتوافق مع ما استجد من المؤثرات . ومثل هذا التغاير الخارجى يؤدى إلى تغير فى الأفكار والسلوك الاجتماعى والشعور الذاتى فى الجماعة البشرية ...

وأظن أن مناظرى مهما حاول أن يتعسف فلا يساعده المنطق والعلم أن ينال من صحة هذه المقررات الأولية

وإذن يسقط السبب الوحيد الذى يرجع اليه مناظرنا فى إيمانه بتفوق ثقافة الشرق الغيبية

ولنا أن ننظر مع ذلك فى حقيقة الاتجاه الغيبي فى المجموع البشرى كحالة طبيعية تمر بها الجماعات فى تطورها التاريخى وارتقائها الطبيعى ، مجردة عن تلك الحالات التى تقيمها اليوم فى كيان المجتمع العربي على وجه عام ، والمصرى على وجه خاص . وسنجد أن الحالة الغيبية مبعثها الجهل بأسباب الأشياء الطبيعية وعللها الكونية ، فيجنح العقل إلى ما وراء الطبيعة والكون محاولا أن يستنزل منها تفسيرات وتعليلات للحالات التى يخلص بها من حياته فى العالم المنظور . وأظن أن أحسن ما يمكن أن أقدمه لمناظرى الفاضل تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم ، ففى كل صفحة من صفحات هذا التاريخ يقع على ما يؤيد فكرتنا

يقول الأستاذ « بيتى كروزيار » :

(لقد كف الناس عن القول بأن المذنبات تنذر بمية عند ما عرفوا أسباب ظهورها وعللوا وجودها . وكفوا عن القول بأن الصواعق نتيجة غضب إلهي عند ما عرفوا حقيقة الكهربائية الجوية ، وعند ما استكشف « فرنكلين » مانعته المشهورة . ورجعوا عن القول بأن الجنون والمس عائد إلى أعمال السحرة والمشعوذين وأنصار الشياطين عند ما دلهم الطب على أسبابها العصبية . ورفضوا الاعتقاد بأن اللغات منشؤها بابل عند ما وضعت قواعد مقارنة اللغات)

نعم لقد كف الناس فى العالم المتمدن عن كل هذا ، وآمنوا بسنة « كُنْت » من أن الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لابد أن تعود إلى سبب طبيعى ، وأنه من المستطاع تعليلها تعليلا علمياً مبناه العلم الطبيعى . من ذلك اليوم انهار قائم اليقين بما بعد الطبيعة للافصاح عن حقيقة الظاهرات الطبيعية ، وكان نتيجة ذلك أن خلص العالم المتمدن بعقلية وثقافة جديدتين طابعهما يقيني إثباتي . ونحن إن كنا نقول باستحالة الأخذ بالعلم الأوربى مع الاحتفاظ بالثقافة الشرقية من حيث أن طابعها غيبي ، فذلك مرده أن العلم الأوربى قائم على عقيدة أولية فى إمكان الكشف عن سبب طبيعى لكل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية

٦ — يظهر أن المناظر الفاضل حين أراد أن يرد على القول

بوجود أصل فرعوني في ثقافة مصر التقليدية ، تعسف إلى حد أن خرج على الأوليات المعروفة في حقائق الاجتماع وعلم تكون الشعوب . وإلا فليفسر لنا معنى سخريته من هذه الأوليات ؟

يقول المناظر الفاضل :

« أما أن يعد المناظر « يعنيني بذلك » طريقة استغلال الأرض فطرة (لم نقل فطرة وإنما كل ما قلناه ثقافة تقليدية أو تراث للشعب، فاذا صح الكلام على هذا الوجه يستقيم) فذلك مما لا يوافقه عليه أحد — لماذا ؟ — لأن المسألة هنا تتعلق بتطور في أساليب الصناعة . ولو كان الأمر كذلك لكان كل مرتد غير القميص الأزرق ، وكل حارث بآلة حديثة ، وكل مستبدل « شادوفاً » « بطلمبة » فاقداً للأصل الفرعوني في ثقافته التقليدية»

وهذه لعمري إحدى أطاريف الكلام في مناظرتنا . ومنحى الطرافة أن يحمل المناظر الحقيقة على وضع يسخر منه !

نعم أيها الصديق ، إن ما تظنه موضعا للسخرية حقيقة واقعة. وإذا أردت السبب فاننا نسوقه بكل بساطة قائلين :

إن منحى الحياة المعاشية التي يحياها الانسان لها أثر في تحديد مشاعره وتوجيه عقليته وتكوين ثقافته ، من حيث أن الحياة المعاشية تقيم جواً طبيعياً واجتماعياً يعيش فيه الانسان ، وإلا فما الفرق بين ثقافة إنسان يحيا حياة رعي وصيد ، وحياة إنسان يحيا حياة زراعة، وحياة إنسان يحيا حياة صناعية ؟

لا أظن أن المناظر الفاضل يتعسف إلى الحد الذي ينكر الفرق الثقافي بين هؤلاء وأثر حياتهم المعاشية في تكوين ثقافاتهم إلا ويخرج عن الأوليات المعروفة في علم الاقتصاد والاجتماع . وهو إن شاء أن ينكر فلسنا نمنعه . ولكن ليبين لنا إلى أي شيء يستند حتى نناقشه على أساسه ؟!

كذلك إنكار المناظر أن تكون التقاليد التي احتفظ بها المصريون من العهد الفرعوني دليلا على ظهور الدين الاسلامي في مصر على الدين الفرعوني فلا أظن أن منطقه أسعفه في إنكاره، لأنه يعترف ضمناً بهذه الحقيقة في اعتراضه بقوله :

« على أن ما تبقى من التقاليد بعد بدعاً لا يزال الدين يعمل على اقتلاعها من المجتمع لخيره وسلامة إيمانه » فكأن هنالك تقاليد تبقت من العهد الفرعوني وتسربت إلى الدين الاسلامي في مصر ولونته بلون محلي . أما أن الدين يعمل على اقتلاعها لخير المجتمع وسلامته فليس ذلك من شأن الباحث المستقرئ . وله أن ينظر إليها إذا ما نجح الدين في اقتلاعها وأصبحت حقيقة ملموسة.

٧ — قلنا إن لمصر ثقافتها التقليدية التي تتميز بها عن جاراتها من بلدان الشرق العربي . غير أن المناظر وإن اعترف معنا بأن للميزات الاقليمية أثراً على ثقافة الأمم اعتبر أن لكل أمم الشرق العربي ثقافة عامة شاملة ، ومن هنا اعترض علينا وقال بوحدة ثقافة أمم الشرق العربي . غير أن هذا الاعتراض في غير محله ، لأن اعتباره أن لأمم الشرق العربي ثقافة عامة شاملة إن كانت صحيحة إلى حد ما فهذه الثقافة تتلون وتأخذ طابعا في كل بلد من بلدان الشرق العربي ، فمظهرها في سوريا غير مظهرها في العراق ، وهي في العراق غيرها في مصر ، وهي في مصر غيرها في الحجاز ، وهي في الحجاز غيرها في مراكش أو تونس . وهذه حقيقة قد تظهر أوضح للمراقب الأجنبي من حيث تتميز عنده الفروق الأساسية . ومن مظاهر هذه الفروق اللهجات العربية في مختلف بلدان العالم العربي ، ومناحي الحياة المعاشية .

ولقد وهم المناظر الفاضل أننا نهزل حين قلنا إن العامية في مصر هي العربية الآخذة بأسباب الفرعونية ، بينما نحن في مجال الجد ؛ غير أن ناحية من الهزل بدت من خلال كلامنا حين لم يلاحظ مناظرنا ما قلناه في المقال الأول من أننا نعني بالفرعونية وحدة الحياة — عقلية أو معاشية — متمشية في ثقافة المصريين التقليدية حتى العهد الفرعوني . فاذا قلنا إن العامية هي العربية الآخذة بأسباب الفرعونية فانما نعني أنها تأخذ طابعاً مصرياً خاصاً بها ، هذا الطابع هو الذي يتمشى في ثقافة المصريين التقليدية حتى العصر الفرعوني ، ومن هنا جاءت كلمتنا الآخذة بأسباب الفرعونية » .

وأظن أن كلامي قد وضح وبان مفهومه وظهر أنه جد لا هزل ... وبهذه المناسبة ألفت نظر المناظر إلى مراجع قيمة في اللهجة المصرية تشفي غلته وتؤيد وجهة نظرنا ، وأهم هذه المراجع بحث للبروفسور نلينو عنوانه « كتاب في اللهجة المصرية» وهو مطبوع بميلانو عام ١٩٠٣ ، ودروس الأستاذ احمد والي ويوسف المغربي والأستاذ كراتشفوفسكي

« للمقال بقية »

اسماعيل أحمد أدهم